

بل انظر إلى أيام المسلمين الأولى أيام كانوا قليلاً وكان المخالفون لهم كثيراً فقد كانوا كالشامة في الثور الأسود وكانوا يخافون أن يتخطفهم الناس من حولهم فاتجهت قوة المقاومة فيهم إلى الخارج ولم يكن لهم عدو من أنفسهم بل كانوا وحدة يرمون عن قوس واحدة ويسعون بالتعاون وأن كلّ عون لصاحبه وأنه لو لا تعاطفهم وتساندهم لكانوا أكلة الآكل ونهزة المنتهز، في ذلك الوقت والشلل جميع، بل يلبسهم الله شيئاً ولم يفرقهم أحزاباً ولم يقطعهم مزقاً بل كانوا كالجسد الواحد إنْ حادث ألم ببعض منه تألم له الجميع.

فلما عاش المسلمون أحقاً باطروا من الزمن وكان لا ساكن للأرض سواهم تنافساً فيما بينهم فانصرفت قوة المقاومة التي خلقها الله في الكائن الحي إلى الداخل إذ لا منصرف لها في الخارج فأصبحوا يتعاملون وكأنهم وحدات مختلفة لا أمة واحدة.

تركوا الخلاف يشجر بينهم، وأعانياهم على حدته وانصرف كل إلى تقويته: العالم بعلمه وجده، وذو السلطان بقوته وسلطانه.

وإنك لتقرأ كتب علماء المسلمين: المتقدمين منهم والمتاخرين، فتحد ما كتب في الرد على الفرق المختلفة من المسلمين أكثر مما كتب في الرد على اليهود والنصارى والصائب والمحوس والمملل المختلفة، حتى كان الأرض كانت خالية منهم.

وإن المرء إذا أراد نيل طلاق مجادلة المسلمين لأصحاب الأديان المختلفة ليعرف الروح الجدلية في هذه التاريخ الطويل لا يكاد يجد إلا القليل بجانب ما يراه من السهل الدافق من كتب المناظرة بين الفرق الإسلامية يجسد بعض الرسائل القصيرة للجاحظ في الرد على النصارى وبعض فقرات قصر تنسب إلى المؤمن في كتب الأدب كالبيان والتبيين ويجد رسالة تنسب إلى بعض علماء المسلمين والرد عليها من بعض علماء النصارى.

ولا أظن إلا أن الرسالة الأولى موضوعة لضعفها، وضفت لتبيين ضعف حجج المسلمين وقوة حجج النصارى.